جمهورية العراق

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة تكريت

كلية التربية للعلوم الانسانية / قسم التاريخ

دراسات عليا / تاريخ حديث

اسباب الحرب الأهلية الإسبانية

اسم التدريسي

ا.د. عواد إبراهيم خضر

1448هـ

2026م

تصاعد الاستقطاب السياسي الممهد للحرب

تبدأ المقاربة الاستراتيجية لفهم الحرب الأهلية الإسبانية بالعودة إلى عام 1931، وهو العام الذي شهد إجماعاً شعبياً منقطع النظير على إعلان قيام الجمهورية، حيث كان الهدف الجوهري للشعب الإسباني من هذا التأييد المطلق هو الإطاحة بالحكم العسكري الديكتاتوري، والتخلص بشكل جذري من الفئة الأرستقراطية التي دأبت على استغلال الطبقات الكادحة لمراكمة ثرواتها الطائلة. ورغم أن الجماهير ظنت أن هذه الأهداف الاستراتيجية ستتحقق بوتيرة سريعة، إلا أن الإخفاق الذريع للحكومة في تفكيك نفوذ تلك الطبقة الأرستقراطية أدى إلى نفاذ صبر الطبقة العاملة وعموم الفلاحين، بالتزامن مع تدهور الوضع الاجتماعي والاقتصادي بشكل مأساوي، حيث ظلت الطبقات الكادحة تتخبط في مستنقع الفقر المدقع، وتهاوت الأجور إلى مستويات كارثية عجزت معها عن تلبية أبسط الاحتياجات الضرورية للإنسان، في حين بلغت معدلات البطالة حداً غير مسبوق بتسجيل نحو سبعمائة ألف عاطل عن العمل. وفي سياق هذا التخبط، بدأت ملامح التهديدات الوجودية للجمهورية تتشكل منذ وقت مبكر، وتحديداً إبان المحاولة الانقلابية الفاشلة التي قادها الجنرال سان خورخو ضد حكومة مانويل أزانا في عام 1932، والتي انتهت بنفيه إلى البرتغال. ومع حلول عام 1936، شكلت إقالة زامورا من رئاسة الحكومة وانتخاب أزانا بديلاً له منعطفاً سياسياً حرجاً، إذ يعد هذا الحدث من أبرز المسببات المباشرة لاشتعال الاضطرابات وتعميق الانقسامات وتفجر أعمال العنف التي مارسها أنصار المعسكرين اليميني واليساري على حد سواء. وأمام هذه التجاذبات، هيمن على أزانا خوف عميق من احتمالية وقوع انقلاب عسكري يطيح بحكومته، مما دفعه إلى اتخاذ قرارات استباقية تمثلت في إحالة عدد من ضباط الجيش إلى التقاعد الإجباري، بالتوازي مع تنفيذ سلسلة من قرارات النفي والإبعاد طالت الضباط الذين حامت حول

إخلاصهم الشكوك، ومن أبرزهم فرانسيسكو فرانكو الذي كان يتولى قيادة فرقة إسبانية في مراكش، والجنرال غود، حيث تم نفيهما إلى جزر الكناري، إضافة إلى إبعاد الجنرال مولا ونقله من المغرب إلى بامبلونا. غير أن هذه التدابير الصارمة التي اتخذها أزانا أسفرت عن نتيجة عكسية، جاعلةً الجمهورية مكشوفة ومهددة بالأخطار أكثر من أي مرحلة سابقة. وفي خضم هذه البيئة المشحونة، توصل غلاة المتطرفين من كلا التيارين اليميني واليساري إلى قناعة استراتيجية راسخة بأن تبني خيار القوة واستخدام العنف هو السبيل الأوحد لتحقيق غاياتهم السياسية. وقد تجلى هذا الاحتقان بشكل واضح عندما أقدم الزعيم البارز في كتلة اليمين والداعي للملكية، جوزيه كالفوسوتيلو، في منتصف شهر كانون الأول من عام 1936 على شن هجوم لاذع ضد الحكومة، متهماً إياها بالجبن والتخاذل والضعف في مواجهة وصد التيارات السياسية الراديكالية. وبالتزامن مع ذلك، انخرط اليساريون بجدية في الإعداد اللوجستي والسياسي لتنفيذ انقلاب شيوعي، مستفيدين من تغلغل الشيوعية وعناصرها الراديكالية داخل النسيج الإسباني. بيد أن الشرارة الفعلية والمباشرة التي أسقطت البلاد في أتون الحرب الأهلية تمثلت في حادثة اغتيال الزعيم اليميني كالفوسوتيلو، وهي الحادثة التي سارعت مجموعة من الجبهة الشعبية إلى استغلالها كغطاء سياسي لإعلان حركة تمرد شاملة داخل الفرقة العسكرية الإسبانية المرابطة في المنطقة المراكشية، لتدخل إسبانيا نفقاً مظلماً تردت فيه الأوضاع إلى مستويات بالغة السوء.

اندلاع الصراع وتدويل الأزمة الأيديولوجية

بدأت العمليات العسكرية للحرب الأهلية تتخذ طابعاً منظماً عندما شرع مجموعة من الجنرالات في تخطيط دقيق لتنفيذ انقلاب عسكري يهدف إلى الإطاحة بالحكومة الجمهورية لصالح إعادة النظام الملكي. وكان من المخطط استراتيجياً أن يتولى

الجنرال سان خورخو القيادة العليا لهذا الانقلاب، غير أن القدر عاجله إثر تحطم الطائرة التي كان يستقلها قادماً من منفاه في البرتغال باتجاه برشلونة ليلقى حتفه. في تلك الأثناء الدقيقة، شهدت منطقة مراكش حركة عصيان عسكرية واسعة النطاق انخرطت فيها عدة فرق إسبانية كانت ترابط هناك، رافعةً رايات التمرد ومرحلة الانشقاق عن السلطة المركزية،وقد تولى قيادة هذه الحركة الجنرال فرانكو الذي قدم من منفاه في جزر الكناري، والذي تحول فور إعلان وفاة سان خورخو إلى الزعيم الأوحد والمطلق للمتمردين، ومحط آمالهم الكبرى في إسقاط الحكومة. وقد نجح فرانكو في حشد ائتلاف واسع ومتباين انضم إليه العديد من الضباط العسكريين والبحريين في الجيش الإسباني، إلى جانب أغلبية كاسحة من الجنود، والفرق الأجنبية، وكتلة وازنة من المدنيين المحافظين، وأنصار الملكية، والفاشيست، وأعضاء منظمة الفلانج، والفئات المتعاطفة مع الكنيسة، بالإضافة إلى القوات المغربية. وفيما يخص تجنيد المغاربة، فقد خضعوا لعملية استغلال وتعبئة نفسية دقيقة من قبل الجنرالات الإسبان بالتعاون مع عدد من اليساريين المغاربة، حيث تم إقناعهم أيديولوجياً بأنهم يخوضون معارك مقدسة وعادلة ضد الملاحدة وأعداء الله ورسوله، في إشارة مباشرة إلى القوى الشيوعية الداعمة للجمهورية. وقد دُعمت هذه التعبئة ببث إشاعات واسعة النطاق تدعي أن فرانكو قد اعتنق الدين الإسلامي، وأنه شوهد يؤدي مناسك الحج، وأن الانتصار في هذه الحرب سيُتوج بإعادة أمجاد الأندلس وتسليمها للمسلمين في القريب العاجل. وإلى جانب هذا البعد النفسي والديني، شكلت الظروف الاقتصادية القاسية، والفقر المدقع، والضائقة المعيشية الخانقة عوامل حاسمة أجبرت المغاربة على الانخراط في جيش فرانكو، متجاوزين المعارضة الشديدة لعائلاتهم، لتشير الإحصائيات الدقيقة إلى أن أعداد هؤلاء المجندين المغاربة بلغت خمسين ألف مجند بحلول عام 1937. في المقابل، وجدت

الحكومة الشرعية نفسها معتمدة على تحالف هش يضم فريقاً صغيراً من القوات المسلحة النظامية، وبعض التشكيلات من العمال والفلاحين، وأفواجاً متعددة من المجندين الجدد والضباط المبعدين، علاوة على الفئات المتذمرة من سياسات فرانكو لاسيما اعتماده على العنصر المغربي لقتال الإسبان على الأراضي الإسبانية، كما اضطلع الكتالونيون والباسك بدور محوري في دعم الحكومة بناءً على وعود سياسية سابقة بمنحهم حقوق الاستقلال الذاتي لمقاطعاتهم. وسرعان ما تجاوزت الأزمة حدود إسبانيا لتتحول إلى مظهر دولي معقد وصراع أيديولوجي طاحن بين الشيوعية والقوى المناهضة لها، حيث لُقب أنصار الحكومة بـ "الحمر"، بينما عُرف أتباع فرانكو بـ "الفاشيست". وقد أسهم هذا الاستقطاب في تدفق الدعم العسكري واللوجستي الأجنبي، إذ تلقى فرانكو تسليحاً وإسناداً مباشراً من ألمانيا وإيطاليا وجمهورية إيرلندا والجمهورية البرتغالية، بينما حظيت الجمهورية بمساندة فرنسا والاتحاد السوفياتي، وتجدر الإشارة إلى أن معظم العناصر المنخرطة من هذه الدول كانت تمتلك خبرات قتالية سابقة اكتسبتها في ميادين المغرب وكوبا، فضلاً عن تجاربها السابقة في قمع حركات التمرد الإسبانية قبل نشوب الحرب الأهلية. وقد وصف المفكر ليون تروتسكي هذه الحالة الأيديولوجية في تلك الحقبة قائلاً: "إن الحرب الأهلية الإسبانية لم تندلع بالقوة العسكرية الخالصة فإن الثورة الإسبانية أضعفت كثيراً من عدوها، لكن قوتها تكمن في قدرتها على إيقاظ الجماهير الغفيرة للحركة، وفي قدرتها حتى على كسب الجيش من ضباطه الرجعيين ولإنجاز ذلك من الضروري أن يقدم بكل جدية وجرأة برنامج الثورة الاشتراكية". وفي خضم هذه التحولات، كانت استجابة الحكومة في البداية متسمة بالتبسيط، حيث تعمدت تقزيم حجم الانقلاب الذي قاده فرانكو وتصويره كحدث عابر يسهل القضاء عليه، إلا أن الانتشار الكثيف لرايات التمرد والعصيان في ثكنات ومواقع الجيش أجبر الحكومة على إدراك مدى الخطورة البالغة للوضع في

مراكش. حاولت الحكومة تدارك الموقف عبر مسارات تفاوضية مع اليمين المؤيد للانقلاب، واقترحت تأسيس حكومة ائتلافية جديدة تدمج وزراء يمينيين من خارج مظلة الجبهة الشعبية، غير أن هذا الطرح قوبل برفض يميني قاطع لصالح التأييد الكامل للانقلاب العسكري. ونتيجة لهذا الفشل السياسي والتخبط الميداني، ورغم احتفاظ الحكومة بسلطتها الرمزية والفعلية في العاصمة مدريد، إلا أنها فقدت السيطرة تماماً على برشلونة، لدرجة انعدام قدرتها على اتخاذ أي قرار سيادي دون الرجوع لأخذ موافقة الاتحاد النقابي الفوضوي الذي فرض سيطرته المطلقة على مجريات الأمور. فقد عمد الفوضويون إلى مصادرة والسيطرة على كافة المباني، وتأميم المصانع الحيوية، وإدارة وتوجيه الخدمات الطبية والمطاعم العمومية، وتشكيل لجان محلية مختصة بالدفاع عن الثورة، وتدريب المليشيات الشعبية لتكون بديلاً عملياً للجيش النظامي في التصدي لزحف قوات فرانكو، مما خلق حالة من السلطة المزدوجة التي لا يمكن ديمومتها، وفرضت معادلة صفرية تحتم إما تمدد القوى الفوضوية لتحل محل أجهزة ومؤسسات الدولة بالكامل، أو تمكن الحكومة من استعادة توازنها وقوتها لسحق الثورة واسترجاع سيادتها.

التحولات الاستراتيجية وسقوط الجمهورية

في ظل هذه الفوضى المؤسسية وانقسام الخرائط الميدانية، حدد فرانكو ومستشاروه العسكريون استراتيجيتهم الميدانية لتحقيق الانتصار عبر ثلاث خطوات متتالية وسريعة، تبلورت في الاستيلاء أولاً على مراكش الإسبانية، ثم الزحف للاستيلاء على عواصم الأقاليم المتفرقة، وصولاً إلى الهدف الأكبر والمتمثل في إسقاط الحكومة المركزية في مدريد. وقد تكلل مسعاه الأول بالنجاح المطلق في مراكش، بيد أن تحقيق الهدفين المتبقيين، ولا سيما اختراق تحصينات العاصمة مدريد، واجه تعقيدات ميدانية وصعوبات بالغة نظراً لحجم المقاومة الشرسة التي أبداها تحالف الفلاحين

والفوضويين، الذين سطروا ملاحم بطولية مذهلة في تصديهم للقوات الفاشية. فقد وثقت المعارك اندفاع مئات من الرجال والنساء نحو جبهات القتال الأمامية دون امتلاكهم لأي أسلحة، مكتفين بتقديم الإسعافات والعلاج للمصابين، أو مرابطين في انتظار استشهاد رفاقهم بغية التقاط أسلحتهم ومواصلة القتال التلاحمي. وعلى النقيض من هذه البسالة الشعبية، سارعت الحكومة المركزية بمجرد اختراق قوات فرانكو لتخوم مدريد إلى نقل مقرها السيادي هرباً إلى مدينة فالنسيا، تاركةً خلفها مسؤولية الدفاع الاستراتيجي عن العاصمة للجنرال نياخا. وقد أثار هذا الانسحاب حفيظة المتمردين والمدافعين على حد سواء واعتبروه خيانة صريحة من قبل الحكومة، وهو الفراغ الذي سارع السوفيات إلى استغلاله سياسياً وعسكرياً، حيث تمكنوا من إحكام السيطرة التامة على مقر القيادة العسكرية، وطالبوا العناصر الموالية للجمهورية بالتنحي وإفساح المجال لتدخلهم المباشر لإنقاذ مدريد من كماشة جيش فرانكو. غير أن كافة الهجمات التكتيكية المضادة التي نفذتها القيادة السوفياتية باءت بالفشل الذريع نظراً للانتشار الواسع والممتد لجنود فرانكو وتفوقهم العددي الذي حال دون قدرة الجنود السوفيات على إدامة زخم المتابعة والهجوم، مما أدى لتبدد الهجوم الجمهوري المضاد. وقد شكلت المعارك في مدريد مسرحاً لأعنف المواجهات، لاسيما مع انخراط الألوية الدولية للقتال كتفاً بكتف مع الفوضويين في أشرس محاور القتال، وتحديداً في معركة المدينة الجامعية التي شهدت قتالاً ضارياً وكبدت طرفي النزاع خسائر فادحة في الأرواح والعتاد. ورغم قسوة الحصار المضروب، ظلت مدريد متمسكة بصمودها، مما أثار حنق فرانكو الذي أعلن صراحة أن تدمير مدريد بالكامل وتسويتها بالأرض يظل خياراً مفضلاً لديه على أن يسلمها للشيوعيين. وبناءً على هذا التوجه التصعيدي، تحولت مدريد إلى هدف استراتيجي مستباح لسراب الطيارين الألمان، الذين شنوا غارات وحشية قصفوا خلالها العاصمة بالقنابل الحارقة على

مدار ساعات الليل والنهار بغية كسر إرادة وعزيمة الجمهوريين، إلا أن النتيجة كانت عكسية تماماً، حيث تأججت نيران الكراهية والعداء لفرانكو وجيشه في قلوب المحاصرين. وقد استمرت آلة الدمار الجوي في حصد الأرواح وتدمير البنى التحتية، وهو ما بلغ ذروته المأساوية في 26 نيسان من عام 1937 عندما ألقت أسراب الطائرات الألمانية حمولة تقدر بخمسين طناً من القنابل الحارقة على بلدة جورنيكا، مخلفةً دماراً واسعاً وخراباً هائلاً في أرجائها. وفي ضوء هذه التحولات الجيوسياسية المتسارعة، تمكن الحزب الشيوعي من إحكام قبضته وفرض أجندته السياسية على مفاصل الجمهورية، دافعاً بشخصية بورجوازية كبيرة تحظى بثقته المطلقة، وهو خوان نغرين، ليتولى رئاسة الحكومة. سعى نغرين جاهداً لإثبات فاعلية وقوة الجيش الجمهوري، فأعطى أوامره بشن هجوم مضاد ضد قوات فرانكو في شهر تموز من عام 1937، إلا أن عبقرية فرانكو العسكرية مكنته من امتصاص الصدمة وصد الهجوم بنجاح، لينتقل بعدها إلى موقع الهجوم الشامل في عام 1938 موجهاً بوصلته العسكرية باتجاه البحر، حيث نجحت قواته في اختراق دفاعات الجمهورية المنهكة والمتداعية وكبحها في كافة المواقع الجبهوية. في محاولة يائسة لاستعادة المبادرة، أقدم الجيش الجمهوري في 25 تموز من العام ذاته على تنفيذ عملية عبور استراتيجية للنهر باتجاه شمال فالنسيا، لتبدأ هناك أطوار المعركة الإسبانية الفاصلة التي عرفت بمعركة إيبرو، والتي استمرت رحاها لمدة ثلاثة أشهر متواصلة تحت وابل القصف المدفعي والجوي العنيف من طرف قوات فرانكو. ومع توالي الضربات الماحقة، بدأ جدار الصمود الجمهوري بالتصدع السريع، متكبداً خسارة استراتيجية فادحة بفقدان الجيش الشمالي وهزيمته القاسية في معركة إيبرو. وقد توجت هذه الانهيارات العسكرية المتعاقبة بسقوط مدينة برشلونة في 26 كانون الثاني من عام 1939 دون أن تشهد أي مقاومة عسكرية تذكر، ليعقبها الانهيار الأخير للعاصمة

مدريد التي سقطت ضحية النزاعات والانقسامات الداخلية العميقة بين الفصائل الجمهورية ذاتها. إثر هذا التفكك التام، دخلت قوات فرانكو منتصرة إلى قلب مدريد في شهر آذار من عام 1939، حيث ارتفعت الرايات البيضاء في شرفات المنازل إيذاناً باستسلام المدينة المطلق والخضوع لحكم فرانكو. وبذلك طُويت صفحة الحرب الأهلية لتفتح صفحة جديدة قوامها تصفية الحسابات السياسية وتتبع المعارضين لفرانكو، الذي توج نفسه قائداً أعلى ورئيساً أوحد للبلاد دون أي منازع مرتقب، ليعلن رسمياً إسدال الستار على هذه الحقبة الدامية عبر بلاغ حاسم كتبه بخط يده ووثقه للتاريخ، قائلاً فيه بكل صرامة: "في هذا اليوم، والجيش الأحمر أسير منهزم، بلغت الجيوش الوطنية آخر أهدافها العسكرية. لقد انتهت الحرب".